أصبحت جزءا لا يتجزأ من الميثولوجيا الصهيونية ، فزورت صورة لتظهره واقفا امام القيصر الالماني الذي كان يزور فلسطين في ذلك الحين . لكن الحقيقة بقيت ثابتة ، وهي ان هيرتزل رجل اوربي صميم ، يخشى الحر الشديد ، ويرتبط الشرق في ذهنه بالمستنقعات والثعابين وبالاقوام الهمجية التي لا تتردد في هجر وطن اجدادها في سبيل المال . فبالنسبة اليه ، القومية هي مفهوم اوربي لا يفقهه الشرقي . وهو متأثر بذلك الامبريالي البريطاني الشهير : سيسل رودس ويريد ان يقتفي خطواته في تأسيس مستعمرة اوربية في الشرق . الا ان التطورات داخل الحركة الصهيونية تثير شجونه ، فان يهود اوربا الشرقية الذين لم ينعموا ببركة الحضارة الجرمانية يريدون تأسيس دولة عبرية تستمد روحها من التوراة وليس من بسمارك او رودس . كما ان علاقته مع زوجته تزداد سوءا ، لا سيما وانه انفق الجزء الاكبر من ثروتها وهجرها . وهي ايضا معتلة الصحة ، ولعل ذلك يعود الى اصابتها بالعدوى منه . ولكن ذلك كله لا يطفىء جذوة الحماس في نفسه ، بل انه يفكر في القيام بغارة على قصر يلدز في الاستانة لعزل السلطان عبد الحميد ، وتعيين سلطان آخر مكانه يكون على استعداد لمنحه فلسطين ! وهو اينما ذهب يهمس في آذان الناس منوها بقوة اليهود الكبيرة ونفوذهم الممتد في كل مكان ، ومحذرا من النتائج الوخيمة ان لم تستجب الدول الكبرى لمطالبهم في انشاء دولة لهم . وفي هذا السياق ، يشير ستيوارت الى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، ليذكر بأن هذه التهديدات بقوة اليهود الخفية قد أعطت مصداقية لهذا الكتاب الذي ما زال العالم يجهل هويـة مؤلفه .

وأخيرا يموت هيرتزل .. لقد قتله طموحه . ومع ان وايزمن كتب بعد ذلك في مذكراته :: التجربة والخطأ ، يقول بأن هيرتزل لحسن حظه مات في الوقت المناسب ، الا ان طاحونة الدعاية الصهيونية ظلت تنتج المزيد من الاساطير . انها اولا اسدلت الستار على المرض الذي انهى حياته ، اذ هناك اشارة مبهمة الى ان قلبه المريض الذي كان قد ادى الى اعفائه من الخدمة العسكرية في شبابه ، هو الذي كان السبب في موته . ولكن ستيوارت لم يتمكن من العثور في سجلات وزارة الحرب النمساوية على الاسباب التي ادت الى اعفـاء هيرتزل من اداء واجبه العسكري ، ولذا فالافتراض ما زال قائما بأن موت هيرتزل جاء نتيجة للمرض الزهري الذي اصيب به في مطلع شبابه .

وماتت زوجته بعده بثلاث سنوات وكانت قـد أوصت بوجوب حرق جثمانها . ويميل ستيوارت الى الاعتقاد بأنها ذهبت ضحية للعدوى التـي اصابتها من زوجها . ولمـا كان السر في خلاف الزوجين كامنا على الارجح في رسائلهما المتبادلة ، فقد اختفت هذه الرسائل دون اثر .

الا ان مأساة آل هيرتزل الحقيقية كانت في حياة الابناء . فان ابنته باولينه ادمنت المخدرات وفشلت في حياتها الزوجية وماتت في بوردو بفرنسا عام ١٩٣٠ . أما هانس فقد درس في انكلترا واقام بها واعتنق الكاثوليكية ، ولكنه كان عرضة للامراض العصبية ، فلم يتزوج . وقد عانى من الفقر ، ولم يكن يطيق ان يذكر اسم ابيه امامه . وكان شديد التعلق بأخته باولينه ، وبعد مدة قصيرة من وفاتها انهى حياته بيده . أما تروده ، فقد تزوجت رجلا تشيكيا ، الا انها ظلت طول حياتها تعاني مـن الاختلال العقلي ، واخيرا ماتت في معسكر نازي للاعتقال في عام ١٩٤٣ ، تاركة ابنا وحيدا يدعى ستيفان تيودور نويمان ، خدم كضابط في الجيش البريطاني اثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم عين ملحقا تجاريا في السفارة البريطانية بواشنطن ، ولكنه قفز منتحرا من جسر في العاصمة الاميركية ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره وآخر سلالة هيرتزل . ويقول ستيوارت انه اوضح دوافعـه للانتحار في اوراق سلمها الى الياهو ايلات ، مندوب الوكالة اليهودية في واشنطن ، ولكن هذه الاوراق لم تنشر ابدا . ويكتب ستيوارت : من الجائز ان يكون قد اكتشف سرا متعلقا بعائلته ، فأدى هذا الاكتشاف الى الاخلال بتوازنه العقلي . ما هو هذا السر ؟ لا ندري .

فارس المنصوري